

بقلم محمد أحمد الراشد

قد ننظر .. واثقين أن الرياح ستدفع شراعنا !

وبعض هذه الثقة التفاؤلية أستمدّها من المعاني العظمى الكامنة في مظاهرات ميدان رابعة العدوية التي بلغت عدة ملايين من الرافضين للانقلاب العسكري، وملايين أخرى متوزعة في ساحات مدن أخرى بين الإسكندرية إلى أقصى جنوب الصعيد، وهي جماهير واعية ومنضبطة ملتزمة وتحت الإشراف الميداني المباشر لمرشد الإخوان وكل القيادة الإخوانية والسلفية، وبذلك تحققت حالة من السيطرة عالية المستوى جداً، والتفهم لفوائد شرط سلمية الاعتراض وافر جداً أيضاً، مع تعامل إيماني وأخلاقي وذوقي رفيع نادر المثال، والتداول الفكري المعرفي عريض وظاهر وتشارك في صنعه أرهاف عديدة من كبار المثقفين الإسلاميين وأساتذة الجامعات وعلماء الشريعة، والكل يصطف للصلاة الجامعة خمس مرات، ثم يكون التهجد وقيام الليل، بحيث تطور هذا الاعتصام ليكون أبرع اعتصام سياسي شهدته الأمة الإسلامية في تاريخها الحديث والقديم، وأضحى وأوعاه، والمشهد يمثل كتلة كبرى يندمج فيها الإيمان بالفقه ثم بفحوى السياسة الشرعية ثم بالمعرفيات والأخلاق، بحيث لم ير مثل ذلك زاهد من رجال التربية القرآنية، لا الفضيل ولا الجنيد ولا الغزالي، وأيضاً: لم ير مثل ذلك فيلسوف كان يحلم بالمثاليات، فها هنا حقيقة بشرية في ميدان رابعة وما هي بخيال، واجتمعت كل المعرفة وتركزت واستقرت في فناء رابعة، ومن المستحيل على أي طاغية أن يفتت ويلغي هذه الكتلة التي تستند إلى بنية أساسية عمرها خمس وثمانون سنة من تراكمات السعي الدعوي الشامل والتربية الإسلامية المنهجية، والقلوب متصلة بعشرات ملايين أخرى من الدعاة على نفس المنهج في أرجاء العالم تتضرع إلى الله أن ينصر الله دعاء مصر، هم بين الرباط في أقصى المغرب ومدينة مراوي في جنوب الفلبين شرقاً، وبين ترستان عند سيبيريا شمالاً وموزمبيق الإفريقية جنوباً، وحتى لو أن دكتاتور مصر الجديد استطاع بقوة السلاح إجلاء الكتلة عن ميدان رابعة وفرّقها: فإن توزعها العريض في أحياء المدن والقرى سيتيح مخاطبة القاع الشعبي العميق وتوعيته وقيادته في عمل تغيير يوفرت له اليوم التجربة والفكر والإبداع التخطيطي والمساندة الإعلامية، ولا يمكن أبداً أن تتكرر مسلسلات الطغيان السابقة، فقد ألغتها حقائق الحرية التي فطن الناس إلى معناها بعد ذهول ونسيان، وكانت ثورة الخامس والعشرين من يناير منعطفاً تاريخياً في المسيرة السياسية للأمة كلها وليس لمصر فقط، وتوفرت اليوم الشجاعة والإيجابية وأنماط البذل وفداء الروح وفهم ركن النهي عن المنكر في التكوين الإيماني، والاقتحام والتوغل واستثمار الفوز الأول هو الفئحة الشعبية السائدة الآن، وكانت السكرة البائدة هي أثر من آثار الصدمة النفسية التي أحدثتها حروب الاستعمار والحرب العالمية الأولى، كما إنها نتيجة للخطوة التجهيلية التي عمل بها الطغاة الذين أتاح لهم الاستعمار احتكار الحياة السياسية وغسل مخ ثلاثة أجيال من خلال التعليم المدرسي المنحرف والإعلام المزور، ثم جعل الله تعالى مواعظ الدعوة تتراكم إلى درجة النجاح في إيقاف الهجمة التغريبية، فنشأ جيل الصحوة الذي نوى الاستدراك، وبقي دائماً في التربية والتطور حتى فهم الشعب الحقائق فثار، وخدمته المدنية العالمية التي أتاح له الكمبيوتر والإنترنت والإيميل والفايس بوك والتويتر والموبايل، وتقارب الزمان والمكان من خلال المخترعات والطائرات والقنوات الفضائية، وصار العالم قرية واحدة، وارتقت ثقافة الطبقة الوسطى التي هي بين المستضعفين في الأسفل، والحكام الظلمة الأعلى، فقادت العملية السياسية، وتبدلت المعادلات الميدانية والاحتكارات واستبداد المخبرات، وما زالت المسيرة تدأب نحو التكميل واستثمار المعطيات، والتقدير العقلاني المنطقي يقول بأن المرحلة القادمة هي مرحلة تعميق وترسيخ الحرية وحقوق الإنسان، ومن المستحيل أن يرجع الشعب إلى عهد الضيم والضهادة والاستضعاف والخنوع للطغيان، وكل القرائن تدعو إلى الجزم بأن عهد الملوك والماليك هو تحت التصفية الجبرية القانونية الدستورية، وأن المستقبل لهذا الدين القيم، كما قالها سيد قطب رحمه الله، ولكنها رفسات المنتهي نراها.

ثم جزء آخر من الثقة نستمدّه من موقف عقلاء الناس النبلاء الأشراف، أمثال المستشار طارق البشري، فإنه مع الشرعية، وينكر الانقلاب العسكري، وتكلّم بوضوح، وأمثاله كثرة، وسفلة القوم فقط من عبدة الدولار هم الذين يؤيدون الطغيان. ثم كل الثقة تحتل قلب المؤمن حين يقرأ آية (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) وقوله تعالى: (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)، وليس أقل من مائة آية في القرآن الكريم تتحدث عما يقارب هذه المعاني، ثم الله عادل ورحيم بعباده، ولا يستوي عنده المؤمن والفاسق، كما في آية: (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً؟ لا يستوون) وقد انقسم الشعب إلى سواد عريض من الصالحين وشرذمة من المجرمين والمصلحين باعت الضمير والدين والمبدأ والذات والعرض وكل شيء بثمن بخس دراهم إماراتية وريالات معدودة تفنى مهما كبر رقمها، والله تعالى أغير على دينه من أن يدع الشرذمة ترفل بالسلطة وتكون الأكثرية المؤمنة في محنة وضيق وسجون وقتل، ولكنه انتصار وقتي هو سبحانه قرره لحكمة تحفى علينا، ثم يكون تمكين المؤمنين إذا ثبتوا، وعلينا أن نقرأ المشهد قراءة قدرية، وأن نعتقد أن من تمام فهمنا للدين ومن أقدس واجباتنا الإسلامية: عدم الاستسلام إذا جثم قدر الشر، بل ننازعه بقدر خيري ونغلبه ونجلبه، وقدر الخير في هذه الحالة تمثله الحرية وأن تكون السلطة بالأيدي العفيفة الطاهرة حتى لو لم تحكم بالإسلام، ولكنها توجد الظروف والبيئة المعينة على عمل دعاة الإسلام بحرية، وتمكينهم من التبليغ وتربية الشعب بالتدرج على القيم الإيمانية وتعليمه الإيجابية.

(وأنا لا أزعم حتمية الفشل الفوري لانقلاب الجنرال السيسي، فرما ينجح بكثرة القتل والسجن والإرهاب من تفريق جموع ميدان رابعة العدوية ويكتم الأفواه، ولكنه لا يستطيع إدامة انتصاره مدة طويلة كما فعل عبد الناصر والأسد وطغاة آخرون، لاختلاف الظروف، ولأن الشعب حصل على جرعة من الوعي كبيرة من خلال ثورة 25 يناير وثورات الربيع العربي، ولوجود جبهة قيادية إسلامية عظيمة الحجم تقود الشعب في محاولة التحرر، وآليات الإعلام العالمي خارج مصر تنقل المشهد ساعة بساعة، وأميركا هي التي تسيطر على الموقف داخل مصر لا الجيش، وإنما الجيش آلة مشتراة، والسفيرة الأميركية "باترسون" هي ملكة مصر الحقيقية والرئيسة النافذة الأمر، لا الجنرال السيسي الذي هو مجرد عميل ودمية بيد السفيرة، وأميركا عدو عاقل، فلعلها تدرك أن استمرار وتيرة الظلم في مصر ليس في صالحها، وتفهم من ضخامة التحرك الإسلامي المعارض ما لا يفهمه السيسي، فتأمر بالاستدراك وحلول وسطى هي خير لها من العصف الكامل بمصالحها وأهون من تنامي روح العداء لأميركا، ودوائر القرار الغربي تدرك ما ندركه نحن من "متوالية الطغيان والحرية" في ظواهر حركة الحياة، مما لا يدركه السيسي، لغبائه وضحالة مستواه العقلي والتأملي والمعرفي، وفحوى هذه المتوالية أن الطغيان إذا اشتد جداً: تحركت أشواق الحرية في دواخل الناس فتكون ثورة تنهي الطغيان، حتى إذا رفل الناس بالخيرات والحرية مدة طويلة ضعفت احتياطاتهم، فيستيقظ طاغية جديد يستثمر غفلة الناس ونسيانهم لذكريات الطغاة، فيتكرر السوء، حتى إذا طال زمنه وزاد البغي: انتفض الناس وثاروا، ثم من بعد مدة يغفلون، وهكذا تستمر هذه المتوالية، لكن مدة الحرية تكون أطول في كل مرة، بتأثير الوعي النامي، حتى يصل الأمر بعد تكررات عديدة إلى استقرار عهد الحرية وانقطاع الظلم، وهذا هو الذي حدث في أوروبا وأصقاع كثيرة، ونظنه هو الذي سيحدث بمصر، ولكن التطور المدني والمخترعات الحديثة والرقميات تشتغل لصالح أرهاط الحرية لا لصالح الطغاة، ومُدّد الطغيان ستكون أقصر بشكل واضح، وعملنا لو تغلب السيسي على مؤمني رابعة ينبغي أن يكون مع القاع الشعبي في الأسفل، نريه ونوقظه ونمده بالوعي، حتى الدعاة في أرجاء العالم يمكنهم أن يشاركوا في هذه التربية والتوعية داخل مصر، من خلال الإنترنت والموبايل وأنواع الإسناد التي تصب بمصر، وفي هذا تفصيل يتولاه فقه التطوير والتخطيط، وإن معركة الإسلام الكبرى في الأمة الإسلامية ضد الجاهلية والهيمنة الأميركية أصبح محوراً مصر، ومنها سينطلق النصر ويمتد، وميدانها هو الميدان.

ثم القراءة القَدَرية لتطور الأمور في قضية فلسطين وشواهد تشهد باحتمال صحة نبوءة التلمود اليهودي بزوال إسرائيل سنة 2022 للميلاد: توجب أن تكون غزة في خلال هذه السنوات بأيدي المجاهدين من أبطال حماس، لتقود انطلاقة التحرير الكبرى الحاسمة بحول الله، واستمرار حكم السيسي العسكري يضاد ذلك، لأنه سيعمل على إحياء خطة مبارك الأميركية في حصار غزة أو الهجوم عليها، ولذلك فإن الأقدار سيوجهها الله نحو فشل الحكم العسكري وحصول الحرية ثانية بقيادة الإسلاميين.

كيف ؟ وبأي طريقة سيكون فشل الانقلاب؟

لا أدري، وإنما أنا موقن بأن ذلك سيحدث بحول الله، وهي حكمة الله وحدها ستدفع الأقدار إلى أن تعمل لحصول هذه النتيجة طالما أننا على الإيمان والثبات والبذل. الشرط الوحيد المطلوب منا أن نبقي في الساحة نازع الطغيان حتى ولو اعتقلوا قادتنا والناشطين منا، فالمفروض أن نواصل المسيرة السياسية الاعتراضية التي هي باب من أبواب الجهاد والنهي عن المنكر، وكلما سجنوا قادة: نبغ جيل جديد قيادي من الصف الثاني فيتصدر ويواصل الموقف الصلب ويستعين بالله أولاً، ثم بالطاقات الإسلامية الكثيرة في أرجاء الأمة الإسلامية بل والعالم كله، وبطاقات الأحرار من غير المسلمين، من خلال تنسيقات وخطط تتولاها قيادات الإسلام في كل قطر لتصب في وادي النيل، والجهود الإعلامية في هذا الصدد مهمة جداً، والكتابات، والآداب، والشعر، والإنتاج الفني، والتحليلات السياسية، والمال، وضغوط التويتر والفيس بوك والإيميل ورسائل الموبايل، وتحريك جمعيات حقوق الإنسان، والأحزاب الخضراء، والمحاكم الدولية، ومراكز البحوث السياسية، وكبار الكتاب والمفكرين والفلاسفة، والبرلمانيين، ورموز التحرر في كل شعب، ويكون كل ذلك في كل العالم. وآية (وتلك الأيام نداولها بين الناس) تشهد لفجوى متوالية الطغيان والحرية التي ذكرناها، واستعراض تواريخ الأمم فيه شواهد كثيرة أيضاً، والإنسان في هذا المجال مخير لا مسير، وفي الحالتين هو بقدر الله يتحرك، أي أن الخيار بيدنا، إن نشأ نخنع، فيكرهنا الله ويعاقبنا بطول جثمة الظلم، أو إن نشأ نتفض ونطالب بالحرية ونجهر في الميادين برفض الطاغية، فنكون أقرب إلى احتمال نزول رحمة الله وتأييد الملائكة لنا وتزلزل الحكم الاستبدادي، وهذا الموقف مطلوب من كل مسلم ومن كل حر من أبناء الشعب وإن كان نصرانياً أو بوذياً، وليس هو واجب دعاة الإسلام فقط، بل الدعاة هم القادة، والدخول في الحشد المعارض هو واجب كل فرد، ويكون أدأوه لهذا الواجب بنفس سمحة، ومن أصوب ما قرأت في التويتر أن البعض صار يقول: مع أي أختلف مع مبادئ الإخوان إلا أنني ضد الانقلاب أيضاً، وهو لا يدري ما هو خلافه مع الإخوان، ولو تأمل لأدرك أنه لا يستطيع أن يزعم تعيين شيء يختلف مبدؤه عن مبادئ الإخوان، فإن الإخوان يدعون إلى كل الإسلام، وإلى العدل والتنمية والتعاون وأجمل الأخلاق وصلة الرحم ونصرة المظلوم وإغاثة اللهفان، وإلى كل مصلحة تعارف عليها البشر أئمة من صفات النبل والمروءة، فمع أي خصلة من هذه الخصال الخيرية هو يختلف ؟ لا شيء، ولكن الشيطان يحاول تخذيل عباد الله عن العمل الصالح التعاوني، ولم يشترط الإخوان على كل أحد أن يدخل صفوفهم ليتعاونوا معه، بل هم مفتوحون إزاء مبادرات كل نبيل يريد منفعة الناس والحفاظ على القيم والإخلاص للبلد، ولم يزعموا أنهم هم المسلمون فقط، بل شعارهم المشهور أنهم (دعاة لا قضاة)، وأنهم جزء من الأمة الإسلامية، ولكنه جزء امتاز بتداول العلم وممارسة التربية وتنظيم الأعضاء وتخطيط العمل، فأصبح مؤهلاً بذلك لقيادة بقية المسلمين، وهذه نتيجة طبيعية لحياة تلك المزاي، فصاحب العلم في عرف كل الأمم يقود من لم يتعلم، والمنتظم أكفأ من السائب، والملتزم بتخطيط أفضل من أصحاب الارتجال، فأين الغرابة، ولماذا يستنكف مؤمن جاد يريد نهضة الأمة وزوال الطغيان من أن يقوده الإخوان ؟ لا شيء في الحقيقة، وإنما هي شبهات يلقيها الشيطان ليصد البعض عن تحصيل أجر المعاونة في رفع الظلم.

أما وجود احتمال قتل لو سلك المؤمن درب المطالبة بالحرية: فهذا لا يتقصده الإخوان، وهم أرباب في قيادتهم من التهوّر والاستعجال والمغامرة، ولكنها هكذا هي الطواغيت، تقتل عشاق الحرية، وهي المسؤولة عن هذا الإثم لا الإخوان، ولكن شعوب العالم كلها قد تعارفت على دفع ضريبة دم إذا أرادت الحرية، وكل أمة ناهضة متقدمة الحال نراها اليوم في قوة ومكانة عزيزة: سبق لها أن دفعت هذه الضريبة وبسخاء، والأمم الضعيفة الآن هي التي خنعت واستثقلت دفع تلك الضريبة، فلبث فيها الطغيان، فضمّر الإنتاج وانعدمت التنمية وتاهت فضعفت، والمفروض أن يكون كل فرد من الشعب باذلاً لنفسه في ميدان منازعة الطواغيت، لا بدافع الإسلام فقط، بل بالدافع الإنساني العام أيضاً، والذين يخنعون هم أنانيون في الحقيقة، لأنه يرى نفسه في رفاهية ولا يحاول تخليص الملايين من الفقراء والمستضعفين، وهؤلاء المواطنون في دول الخليج اعتدنا أن نسمع منهم في التويتر قولهم: نحن بخير، وآل ثميان عمرونا بالفضل، وآل سعود، وآل الصباح، فلا تتدخلوا في أمرنا. فنقول لهم: هذه أنانية وبقية جاهلية، فإن كنت في رفاهية: فما بال عشرات الملايين من الفقراء بمصر وغيرها، ولماذا لا تعمل على الارتقاء بحالهم وتوفير الحرية لهم إن كنت مؤمناً حقاً، والمسلم أخو المسلم؟ ولماذا لا تنكر على حكومتك إرسالها البلايين الكثيرة لعصابات الضباط الذين بدلوا واجب جيوشهم من تحرير فلسطين إلى حماية العروش؟

(أقول: ومما يضاعف وجوب نصرة المسلم لأخيه المسلم: أن الأمر خرج عن حدود الخلاف السياسي وحصلت مجزرة أمام مقر الحرس الجمهوري عدد ضحاياها في حدود الخمسين في بعض التقديرات، أو حدود السبعين في رواية الإخوان، مع أكثر من ألف جريح، ولكن عدد الضحايا ارتفع في يوم 12/7/2013 إلى مائة وثلاثة، لموت بعض الجرحى، والتقى الإعلامي أحمد منصور بمجموعة من أساتذة الجامعات والمهندسين والأطباء تم الإفراج عنهم بعد اعتقالهم أياماً، فأفادوا بأنهم تعرضوا لأبشع أنواع التعذيب التي هي فوق الخيال، ثم حدثت مجزرة رابعة العدوية التي استشهد فيها مائة وخمس وثلاثون وجرح أربعة آلاف وخمسمائة، ومجزرة مسجد القائد إبراهيم بالاسكندرية، وهذا وصف يجعل الطاغية الجديد بمصر أسوأ وأردأ العهود الطغيانية الحديثة في العالم العربي، لأن هذه البداية تحوي نبأ نهاية دموية أيضاً، مع دماء على طول الطريق، ولا يفوقه غير القذافي في دمويته حين قتل أكثر من ألف ومائة قتيل في حادثة سجن بو سليم. فراجع نفسك أيها المواطن المصري السليبي الذي لم ينضم إلى مظاهرات النكير الإسلامي على الظلم الطغياني، وراجع نفسك أيضاً أيها الخليجي السليبي الذي لم يدرك بعد جريمة حكومته في صنع الانقلاب العسكري بمصر. إن انضمام السليبيين إلى تيار رفض الطغيان سيبدل المعادلة ويلغي تفوق العسكر، فإذا حصلت انتخابات حرة لا تزوير فيها: فإن الأغلبية ستتحاز إلى الشرعية والحرية ويرجع الرئيس المخطوف مرسي إلى الحكم، أو ثقة على شاكلته، ويكفي الله المؤمنين مزيد قتال. وإذا كان تزوير: يلبث عشاق الحرية هم الأقوى أيضاً، لأنهم هم القاع الشعبي العريض الذي يواصل الإباء حتى يتحقق فرج بعد هذه الشدة.

وقد عصفت بدواخلي العواطف المرسوية، فكانت قصيدة من بحر مجزوء الرمل نظمها متغنياً بفضائل ومناقب الرئيس القرآني الأمين، ومقتبساً وزن (طلع البدر علينا) وما في ذاك الطلوع من بركة وتشريف، والمعنى في القصيدة: أن شعب مصر في حالته الطبيعية رقيق العواطف، جمالي الأحلام والتمنيات والرؤى، ولذلك هو ينثر الأشواق الصادقة دوماً ويميل بالفطرة النقية إلى الثقة الأمين المؤمن، وأما ما حصل من اضطراب فهو نشاز بسبب خطة صُرّفت فيها الأموال لتجيش المجرمين والنكرات، وفي كل قوم رهط لا مبادئ لهم، وخوف اليهود من إسلام يتمكن بمصر وغيرها دعاهم إلى تحريك النفوذ الأميركي ليضرب ضربته، وأما عموم الشعب فهو من السوء بريء، ونحن نثق به، وضماننا: عمق الروح الإيمانية السارية بمصر، والقناعة بتحكيم الشريعة،

ومن ذلك انطلق مرسي، صارماً في فقهه، ناوياً تحقيق تنمية قد عشق الشعب صوراً المثالية التي تخيلها لوأداً ببعض التأسيس الذي يداوي الوحشة التي جثمت عليه طويلاً، لكن السياسات الخفية الصهيونية الأميركية النفطية لعبت لعبتها حين رأت مرسياً يفهم السبيل إلى تحقيق الأبعاد الجمالية، وصار الدليل في مسيرة الشعب الطموح، وروى الظمأ، وكان واضحاً أنه قد عرف طريق التطور الذي يمر بصناعة الرجال الذين يختارهم من الصفوة المتميزة الذكية، والذين سيعالجون كلال مصر وضعفها، فكانت بلوى القمع الذي ينبغي أن لا يروعنا ولا يحفل مرسي، لأنه يستطيع المضي في ثقته بشعب مصر الذي غمرته الصحو، فيستأنف المنافسة وجمع الأصوات، ويقتحم ثانية، فإن معظم عقلاء مصر ومن يفهم التنمية معه، وقد تبين لهم الحق وكرهوا الفساد والطغيان وقرروا استجلاب البركة الربانية على مصر بمزيد من الإيمان، وإذا منع الجنرالات الإخوان من الترشيح، أو زوروا النتائج الانتخابية: فإن ردود الفعل الشعبية ستظل تتفاقم وتتسع في أوساط الأمة الإسلامية كلها حتى تصل إلى درجة ثورة أخرى وستكون أضخم من الأولى وأسرع وأوعى، والانقلاب نقلنا إلى خريف من بعد الربيع العربي، وسيكون هناك شتاء جاهلي شديد، ثم بعد كل شتاء ربيع جديد مزهر.

وأنا لست بذاهل عن أن الانقلابيين سيحاولون منع الإخوان من الترشيح، وإذا سمحوا لهم تحت ضغوط دولية فإن التزوير سيمنعهم من الفوز، ولكنني ذكرت محاولة جمع مرسي للأصوات في الانتخابات في قصيدي إمعاناً ومبالغة في تثبيت نمطنا السلمي في المعارضة، الذي هو الأجدى في الظرف الحالي، وقراءة الساحة والواقعة تجعلنا نحصر على تفويت فرصة الانقلابيين باتهامنا بالإرهاب كي يكون استئصالنا.